المهم هو أن النقد المعاصر خليق بأن يعود إلى تراث العقاد ليمحص أموراً ثلاثة : ثورة العقاد على البلاغة وفتنة اللغة ؛ ومحاولة دعم فلسفة خاصة بالحكم الأدبى ، والتأتى للغة من طريق الظاهريات التى أهملها معظم الذين ناقشوا العقاد . ومن خلال الاهتمام بالدلالة على نحو ما قالت الظاهريات كتب العقاد فصولاً غير قليلة جديرة بالقراءة فى فلسفة العربية ، وحاول مناقشة معارض بنيتها بغير الأسلوب الشائع فى هذه الأيام . ما من إنسان يستطيع أن يزعم فى بساطة أننا قد صعدنا بلا عثرات فوق الأفق أو الآفاق التى أضاءها العقاد .

وإذا كان العقاد قد أهمته على الخصوص فتنة اللغة فإن المازنى أيضاً كان على ذكر بهذه الآفة الموروثة . كلاهما يذكرنا بما يمكن أن نعنون له باسم فتنة التحليل اللغوى المتعارف فى هذا الأيام . لا ريب أن ضمير المازنى والعقاد معاً من خلال حاسة أدبية ونقدية رفيعة كان يستوعب مخاطر هذا التحليل أيضاً ؛ ذلك أنهما شغلا بالقيمة والتقويم ، أو شغلا بتصحيح مسيرة النقد والأدب جميعاً ، وعرفا من خلال هذه المشغلة ما يخدم وما لا يخدم بسهولة من شئون هذا التحليل .

وآية ذلك أن المازنى نفسه تناول أدب المنفلوطى كما تناوله العقاد . لكن المازنى بخاصة راح يتأمل لغة المنفلوطى أو يستقرئها استقراء غاية فى الدقة ؛ استقراء من فهم علاقة التراكيب بالمعنى . وهى علاقة كانت موضوع مشاحة واسعة . فهم المازنى سيطرة بعض التراكيب على المنفلوطى ، وعلى الخصوص هذا الذى يسميه النحاة باسم المفعول المطلق . كان يرى حركة المفعول المطلق حركة غير « صحية » . وربما خيل إليه أن فتنة هذا التركيب وما إليه قد حببت إلى المنفلوطى ما كان يستطيع أن يتجنبه . لم يشأ المازنى أن يطنطن بعبارات خلابة ، ولم يشأ أن يقول إنه يخترع طريقة غير مألوفة . وسبب ذلك فيما يظهر أن كلا الباحثين ، المازنى والعقاد ، كان يرى أن ما يؤديه التحليل اللغوى ربما يدركه القارىء الفطن الذى يدرك النص إدراكاً جمليا عاماً ، وبخاصة إذا كان مهموماً بالقيمة . راح المازنى يتتبع بعد ذلك ما نسميه باسم العاطفة غير الناضجة ، التى استولت على المنفلوطى . والمهم أن المازنى نسى فى أثناء ذلك مسألة المفعول المطلق ، ولم يشأ أن يجعلها مفتاحاً صريحاً لتأملاته فى عيوب تفكير المنفلوطى . لقد رأى أن النتائج الواحدة يمكن بلوغها من طرق مختلفة ، وأن من لا يستوقفه المفعول المطلق لاشك يستوقفه اتجاه المنفلوطى بعامة فى التصور ، ومن ثم